

## ١٤ - سورة إبراهيم

مكية وآياتها ثنتان وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو (القرآن العظيم) الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم، ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي، إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿بإذن ربهم﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره، يهديهم ﴿إلى صراط العزيز﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الحميد﴾ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعته وأمره ونهيه، الصادق في خبره، ﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ بالجر على الإتيان صفة للجلالة، كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض﴾ الآية، وقوله: ﴿وويل للكاافرين من عذاب شديد﴾ أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم. ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ وهي اتباع الرسل، ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ .

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغه قومه﴾. وقوله: ﴿فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وهو العزيز﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ بِأَنْتَ فِي ذَلِكَ لَآتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ .

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: هي التسع الآيات، ﴿أن أخرج قومك﴾ أي أمرناه قائلين له: ﴿أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من

الجهل والضلال، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ أي بأيامه ونعمه عليهم (١)، في إخراجهم إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائهم إياهم من عدوهم، وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم الغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد. وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل ﴿صبار﴾ أي في الضراء، ﴿شكور﴾ أي في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. وكذا جاء في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ مَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ مِثْلَ مَسْمُومٍ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ يَسَاءَتًا وَاللَّيْلُ نِسَاءٌ مُكْتَمَةٌ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْوَاهُ مِنْ شَكْرِكُمْ لِأَنْتُمْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أنثاهم، ويتركون إناثهم فانقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل: ﴿بلاء﴾ أي اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا، وهذا - والله أعلم - كقوله تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾، وقوله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ أي أذنكم وأعلمكم بوعده لكم؛ ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك ليعيثن عليهم إلى يوم القيامة﴾. وقوله: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿ولئن كفرتم﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إن عذابي لشديد﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». وقوله تعالى: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ أي هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبِينَ ﴿١٠﴾﴾.

قص الله علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول مما لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل، ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات، وقوله: ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾ اختلف المفسرون في معناه، قيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرتهم بالسكوت عنهم لما دعواهم إلى الله عز وجل، وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم، وقال مجاهد وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم، ويؤيد قول مجاهد: تفسير ذلك بتمام الكلام ﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ فكان هذا والله أعلم تفسير لمعنى: ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾، وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا: إنا كفرنا بما أرسلتم به الآية، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

(١) ورد تفسير: «أيام الله» بالنعم في حديث مرفوع في المسند عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ قال: بنعم الله، قال ابن كثير: وورد موقوفاً وهو أشبه.

﴿ قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَيْ اللَّهُ شَكَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُزَخِّرَكُمْ لِذَاتِ  
 أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْشَرْنَا بِشْرًا فَلَنَا نَرِيذُونَ أَنْ نُصَلِّدُونَا عَمَّا كَانَتْ يَدْعُوْنَا مَا بَدَأْنَا بِإِذْنِنَا يُشَلِّطُنَا مُبِينٌ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ  
 رَسُولُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِشَلِّطِنَا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ  
 وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ  
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أفي الله شك﴾، أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه: ﴿فاطر السموات والأرض﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء، وإلهه ومليكه، وقالت لهم رسلهم: ﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي في الدنيا، فقالت لهم الأمم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة، ﴿فأتونا بسلطان مبين﴾ أي خارق تقترحه عليكم، ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية، ﴿ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ أي بالرسالة والنبوة، ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان﴾ على وفق ما سألتهم ﴿إلا بإذن الله﴾، أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي في جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله﴾ أي وما يمتعنا من التوكل عليه؟ وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا﴾ أي من الكلام السيء والأفعال السخيفة، ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُغَيِّرَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ نَعُودَنَّ فِي بِلَدِنَا فَأَرْجَىٰ لَأْتِيَهُمْ رَبُّهُمْ كَنُحُورِكُمْ أَظْلَمِينَ ﴿١٣﴾  
 وَلَنُحِجَّنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَدِينِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ  
 دَرَابِهِمْ جَهَنَّمَ وَنَسَفْنَا مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ بَنَجْرَعُهُمْ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمُعْتَدٍ  
 مِنْ دَرَابِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ الآية، وكما قال قوم لوط: ﴿أخرجوا آل لوط من قريتك﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين \* ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾، كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال تعالى: ﴿وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾، وقال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾، وقوله: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي وهو تخوفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فأما من طغي \* وآثر الحياة الدنيا \* فإن الجحيم هي المأوى﴾، وقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وقوله: ﴿واستفتحوا﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومهم<sup>(١)</sup>، وقال ابن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة.

قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ ، ويحتمل أن يكون هذا مراداً، وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ، واستنصر وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾ الآية، ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿القي في جهنم كل كفار عنيد \* منع للخير معتد مريب﴾ . وفي الحديث: ﴿إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد﴾ الحديث، وقوله: ﴿من ورائه جهنم﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ ، وكان ابن عباس يقرؤها: وكان أمامهم ملك، أي من وراء الجبار العنيد جهنم، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشيا إلى يوم التناد، ﴿ويسقى من ماء صديد﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، كما قال: ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق \* وآخر من شكله أزواج﴾ ، وقال مجاهد: الصديد من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر فقد خالط القيح والدم، وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: قلت: يا رسول الله ما طينة الخبال؟ قال: ﴿صديد أهل النار﴾ ، وفي رواية: ﴿عصارة أهل النار﴾ ، وقال الإمام أحمد، عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ويسقى من ماء صديد \* يتجرعه﴾ قال: يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعائه حتى يخرج من دبره، يقول تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ ، ويقول: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الآية<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿يتجرعه﴾ أي يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضره الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ ، ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطيع، ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ أي يألم له جميع بدنه من كل عظم وعصب وعرق، وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، وقال ابن عباس: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه، لو كان يموت، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ ، ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه، اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ ، وقوله: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿فإنهم لا يكونون منها فمالتون منها البطون \* ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم \* ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ ، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عياداً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿إن شجرة الزقوم \* طعام الأثيم \* كالمهل يغلي في البطون \* كغلي الحميم﴾ ، وقال تعالى: ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق \* وآخر من شكله أزواج﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصى إلا الله عز وجل، جزاء وفاقاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ .

﴿تَتْلُو آيَاتِهِ كَثُرُوا بِهِمْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا وَاسْتَدَّتْ يَدُ الرَّحْمَٰنِ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَيَّ شَيْئًا وَذَلِكَ هُوَ الصَّلَاتُ الْبَيْدُ﴾ .

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن جرير.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار، الذين عبدوا من غيرهم، وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت فقال تعالى: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء، فلم يجدوا شيئاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدرُوا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿مِثْلَ مَا يَتَفَقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمِثْلَهُ كَمِثْلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ بَشَأْ يَذْهَبِكُمْ وَيَأْتِ بِذِيئِكُمْ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد، وأوتاد وبراري وصحارى وقفار وبحار وأشجار، ونبات وحيوان ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾، وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يَذْهَبِكُمْ وَيَأْتِ بِذِيئِكُمْ جَدِيدٍ \* وَمَا ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم.

﴿وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَاتُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُتَّبَعُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيئٍ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ويبرزوا﴾ أي برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله الواحد القهار، أي اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يسر أحدًا، ﴿فقال الضعفاء﴾ وهم الأتباع لقاتلتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿للذين استكبروا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، قالوا لهم: ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي مهما أمرتمونا اتتمرنا وفعلنا، ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين، ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال عبد الرحمن بن أسلم: إن أهل النار قالوا: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله عز وجل، تعالوا نيك وتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا أنه لا ينفعهم، قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم يفهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ الآية. قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾، وقال: ﴿حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أحراسهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً﴾، وأما تخاصمهم في المحشر فقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكانا مؤمنين \* قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْمَثُورِ مَا ظَنَنْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِي إِيَّكُمْ فَاسْتَجَبْتُ بِمَا كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمْ بَيْنَ يَدَيَّ وَإِنِّي لَأَكْفُرُ بِالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَمَا أَدْرَاكُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغبناً إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم فقال: ﴿إن الله وعدهم وعد الحق﴾ أي على السنة رسله ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿وعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا ضروراً﴾ ثم قال: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به، ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فلا تلوموني﴾ اليوم، ﴿ولوموا أنفسكم﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتهم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿وما أنا بمصرخكم﴾ أي بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وما أنتم بمصرخي﴾ أي بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل قال ابن جرير: يقول إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون \* وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾. وقوله: ﴿إن الظالمين﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا، قال الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول تعالى لعيسى ابن مريم: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟﴾ قال: ويقوم إبليس لعنه الله فيقول: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ الآية، ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس عطف بمآل السعداء، فقال: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا، ﴿خالدين فيها﴾ ماكينين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تَوْتِي أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ بِلَاذْنِ رَبِّهَا وَيَصْرِيْبُ اللَّهُ الْأَشْجَالَ لِلنَّاسِ لِأَعْلَانِ بَنَاتِكُمْ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قال ابن عباس: قوله: ﴿مثلاً كلمة طيبة﴾: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كشجرة طيبة﴾ وهو المؤمن ﴿أصلها ثابت﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وفرعها في السماء﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وقال البخاري عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا

شيئاً قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا. وعن ابن عباس: «كشجرة طيبة» قال: هي شجرة في الجنة. وقوله: «تؤتي أكلها كل حين» قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر، وقيل: كل شهرين، وقيل غير ذلك. والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمرة في كل وقت، من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين «يأذن ربها» أي كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً «ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون». وقوله تعالى: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة» هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل<sup>(١)</sup>، وقوله: «اجتثت» أي استؤصلت «من فوق الأرض ما لها من قرار» أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء.

﴿بَيَّنَّتْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَبَيَّنَّتْ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَعْمَلُ اللَّهُ مَا

يَشَاءُ﴾ (١٧)

روى البخاري، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: «بيّنت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»<sup>(٢)</sup>. وقال الإمام أحمد، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتبهنا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها يعني على ملا من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي كنت يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم

(١) روي هذا في حديث مرفوع أن الشجرة الخبيثة هي الحنظلة، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة.

المسوح فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب - قال - فتفرق في جسده فينتزعه كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأتنين ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرْحاً - ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ - فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال - ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمريه، فينطلق به إلى ربه عز وجل فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن كان الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من تنها وذكر مقماً ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ربطة كانت عليه على أنفه هكذا. وقال ابن حبان في «صحيحه»، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض أته ملائكة الرحمة بجريرة بيضاء فيقولون: اخرجي إلى روح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمون حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان، فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم، فيقول: قد مات أما أتاكم، فيقولون: ذهب إلى أه. الهاوية، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأتنين ريح جيفة، فيذهب به إلى الأرض»<sup>(١)</sup>.

وروى العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته، ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ، فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيوسع له في قبره مد بصره. وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم، والبسط هو الضرب «يضربون وجوههم وأدبارهم» عند الموت، فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً «يضل الله الظالمين». وقال ابن أبي حاتم، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: الله، فيقال له: من نبيك؟

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

فيقول: محمد بن عبد الله، فيقال له ذلك مرات ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك من النار لو زغت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة إذا ثبت. وإذا مات الكافر اجلس في قبره فيقال له من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون، فيقال له: لا دريت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك إذا ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثِبْتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ . وقال عبد الرزاق: عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه: ﴿يُثِبْتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: لا إله إلا الله ﴿وفي الآخرة﴾: المسألة في القبر، وقال قتادة أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿وفي الآخرة﴾: في القبر. وكذا روي عن غير واحد من السلف، وعن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل»<sup>(١١)</sup>.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّ الْقَرَارَ﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٨٠﴾ .

قال البخاري: قوله: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرة﴾، ألم تعلم، كقوله: ﴿ألم تر كيف﴾، ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا﴾. البوار: الهلاك، بار بيور بوراً، ﴿قوماً بوراً﴾ هالكين. حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرة﴾ قال: هم كفار أهل مكة. والمعنى جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار. وقال ابن أبي حاتم: قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن؟ فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني وإن كان من وراء البحار لأتيته، فقام عبد الله بن الكواء، فقال: من ﴿الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾؟ قال: مشركو قريش أتتهم نعمة الله الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. وقال سفيان الثوري، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرة﴾ قال: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين. وكذا رواه حمزة الزيات عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين هذه الآية: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرة وأحلوا قومهم دار البوار﴾ قال: هم الأفجران من قريش أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين. وقال مجاهد وسعيد بن جبيرة والضحاك وقاتدة وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر؛ وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر. وقوله: ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله﴾، أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فمهما يكن من شيء ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي مرجعكم وموتلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿تمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾. وقال تعالى: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَوْمَ لَا يَبُغُ فِيهِ وَلَا جُنْدِلٌ﴾ ﴿٨١﴾ .

يقول تعالى أمراً عباده بطاعته، والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة، وأن ينفقوا مما

(١١) أخرجه أبو داود في سننه.

رزقهم الله، بأداء الزكوات والنفقة على القربان والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية، والعلاية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ وهو يوم القيامة، ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تبايع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾. وقوله: ﴿ولا خلال﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مخالفة خليل فيصبح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته، بل هناك العدل والقسط، يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد، إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾، وقال تعالى: ﴿ها أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة للكافرين هم الظالمون﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٢٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٢٣﴾ وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفُورٌ كَفَّارٌ ﴿٢٤﴾﴾.

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً، ﴿وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملاً ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقاً للعباد، ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أي يسيران لا يفترا ليلاً ولا نهاراً ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، ﴿يفشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿بولج الليل في النهار وبولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾، ﴿لا هو العزيز الغفار﴾، وقوله: ﴿واتاكم من كل ما سألتموه﴾ يقول: هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، وقوله: ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين. وفي «صحيح البخاري» أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا». وقد روي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لها لغة تشني عليك بما أوليت من حسن  
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمنن

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَاتًا وَاجْعَلْنِي وَمَنِّىَ رَبِّىَ لَعَلَّ الْآخِصَامَ ﴿٢٥﴾ رَبِّ إِنِّىْ أَسْأَلُكَ كِبْرًا مِّنَ الْكِبْرِىِّ فَمَنْ تَبِعَنِىْ فَإِنَّهُ مِنِّىْ وَمَنْ عَصَانِىْ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة، إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه أهلة تبرأ من عبد غير الله،

وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ ، وقد استجاب الله له فقال تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرمًا آمناً﴾ الآية. وقال في هذه القصة: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ ، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وقوله: ﴿واجنبني وبنيتي أن نعبد الأصنام﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلأق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجوز وقوع ذلك. قال عبد الله بن وهب، عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ الآية، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي» وبكى، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك أعلم؛ وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر ولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿عند بيتك المحرم﴾ . وقوله: ﴿ربنا ليقموا الصلاة﴾ أي إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ ، قال ابن عباس<sup>(١)</sup>: لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿من الناس﴾ فاختص به المسلمون. وقوله: ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أو لم تمكن لهم حرمًا آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام (مكة) شجرة مثمرة، وهي تجبي إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلُنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ .

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن وبي لسميع الدعاء﴾ أي أنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿ومن ذريتي﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها<sup>(٢)</sup> ،

(١) وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما.

(٢) يعني بذريته: بني إسماعيل الذين تناسلت فيهم عرب الحجاز، وقيل أيضاً عرب اليمن، وذريته اثنا عشر رجلاً وامرأة.

﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أي فيما سألتك فيه ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي﴾، وكان هذا قبل أن يتبرا من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل ﴿وللمؤمنين﴾ أي كلهم ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَصَلُّونَ ۚ وَمَا أَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ تُخْرَجُونَ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۖ قُلْ مُهَيَّبَاتٌ مُفْتَبِحَاتٌ مِّنْهُ وَمِيسَمٌ لَا يُرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٦﴾﴾ .

يقول تعالى: ولا تحسبن الله - يا محمد - غافلاً عما يعمل الظالمون، أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعمهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عليهم عذاً، وإنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار أي من شدة الأحوال يوم القيامة. ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿مهطعين﴾ أي مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مهطعين إلى الداع﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يومئذ يتبعون الداهي لا هوج له﴾ وقال تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعا﴾ الآية. وقوله: ﴿مفتعي رؤوسهم﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم، ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر، لا يطفرون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياداً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية، لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: هي خراب لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر به تعالى عنهم، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ:

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَهَ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۖ فَبُعثَ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۖ أَوَلَمْ نَكُفِّرُوا بَعثناهم مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٧﴾ وَسَكَتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٨﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٩﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قبل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿ربنا آخرننا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتنتع الرسل﴾، كقوله: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم﴾ الآيتين، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم﴾ الآية، وقال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ الآية، قال تعالى راداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك، قال مجاهد وغيره ﴿ما لكم من زوال﴾: أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ الآية، ﴿وسكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حكمة بالغة فما تغني النذر﴾. وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبأل ذلك عليهم، ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾، والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يقول: شركهم كقوله: ﴿تكاد السموات والأرض يتفطرن منه﴾ الآية، وهكذا قال الضحاک وقاتدة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَابٍ﴾ ﴿٤٧﴾ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴿٤٨﴾ .

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أرادته ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحده، ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾، ولهذا قال: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، كما جاء في الصحيحين، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد»، وقال الإمام أحمد، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»<sup>(١)</sup>. وقال الإمام مسلم بن الحجاج في «صحيحه» عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار يهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي»، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيئاً إن حدثتك؟» فقال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل»، فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين»، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون»، قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها»، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلاً»، قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: «أينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، قال جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة كان ذكراً بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأة مني الرجل كان أنثى بإذن الله»، قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به».

وروى أبو جعفر بن جرير الطبري، عن عمرو بن ميمون يقول: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا، قال: أراه قال قياماً حتى يلجمهم العرق، وعن عمرو بن ميمون عن عبد الله عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة»<sup>(٢)</sup>. وقال الربيع عن أبي بن كعب قال: تصير السماوات جنائناً. وقال الأعمش، عن عبد الله بن مسعود: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترشح في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب، قالوا: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال مما يرى الناس ويلقون. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن كعب في قوله: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ قال: تصير السماوات جنائناً ويصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها. وقوله: ﴿وبرزوا لله﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الواحد القهار﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب.

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) رواه الحافظ أبو بكر البزار.

﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَجَنَّىٰ وَجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ وتبرز الخلائق لديانها ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿مقرنين﴾ أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذي ظلموا وأزواجهم﴾، وقال: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾، وقال: ﴿وإذا لقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا﴾، وقال: ﴿والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ والأصفاد هي القيود<sup>(١)</sup>، قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالشيايب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله تعالى: ﴿سرابيلهم من قطران﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تهنا به الإبل، أي تظلى، قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار، وكان ابن عباس يقول: القطران هو النحاس المذاب<sup>(٢)</sup>، أي من نحاس حار قد انتهى حره، وقوله: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾، كقوله: ﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾، وقال الإمام أحمد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنياحة إذا لم تتب قبل موتها؛ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت﴾ أي يوم القيامة ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا﴾ الآية، ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز، لأنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية، وأن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سريع الحساب﴾ إحصاء، ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين والله أعلم.

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذُكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ .

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ الآية، ﴿وليُنذروا به﴾ أي ليتعظوا به، ﴿وليَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وليَذُكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ذور العقول.

آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبيرة والأعمش وعبد الرحمن بن زيد.

(٢) وهو مروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وقاتدة.

(٣) أخرجه مسلم والإمام أحمد في المسند.